عبدالله النديم بين الفصحى والعامية

أ.د. محمد حسن عبدالعزيز (*)

اللغة: هي أنت...هي وطنك

تأسيس:

- "إضاعة لغتك تسليم ذاتك ووطنك إلى غير ذاتك ووطنك، وبضياع لغتك، والاستعاضة عنها تُضيع منك الوطنية، والمعتقدات الدينية، فإنك عند ذاك لا تخاطب بها إلا أجنبيا من البلاد مغايرا لك في الجنسية".
- اللغة آلة مادية تقوم بها مبادلة الأفكار بالمعاني بين أفراد الإنسان عموما".
- "وهي ليست آلة فقط، فهي لا فضل لها في ذاتها، فعزتها وانحطاط مقامها إنما يكون في صفات قومها من قوة وضعف، وعلو وفكر وسقوط همَّة، وما هم عليه من استقلال وحرية أو استبداد وعبودية، وتقدم وتأخر ونحو ذلك، فهي مرآة تتكسر فيها صور شعوبها، ومن ثم تتأثر تأثرا فعليا من الطوارئ التي تطرأ عليها".
- إن في لغتنا لذة ووطنية. والوطنية الحقة- دعنا من الكلام الفارغ- قائمة في المعاني لا في الألفاظ؛ أي: صيانة حقوق الأفراد، وإحكام العدل والتسوية، والالتفات إلى الأمة ولغتها،...وإن لم يحدث هذا فأنت تضرب في حديد بارد، وكانت الوطنية قولهم: ضرب زيدُ عمرا، واشتعل الرأس شيبا، وما أشبهه".

عبدالله النديم

(*) أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

قصة كفاح عبدالله النديم

(١٨٤٣-١٨٩٦م)

هو عبدالله بن مصباح بن إبراهيم، ولد بالإسكندرية، وكان أبوه وسطا في اليسار؛ يعمل خبازا، ويعول أسرة كبيرة العدد، ويعيش في مسكن متواضع، ولذكائه ونجابته أدخله أبوه مدرسة الشيخ "إبراهيم باشا"؛ فقرأ على أكابر الأشياخ وأتقن علوم الشريعة، واللغة، والأدب، ولم يكتفِ بما حصله؛ فكان يَغْشى مجالس الأدباء؛ يسمع شعرا وزجلا وقِصصا...واضطر إلى أن يعمل في وظيفة "تلغرافي" بقصر والدة "الخديو إسماعيل" بالقاهرة.

وكان يتردد إلى الجامع الأزهر، ويلتقي بمشايخه، ويتعلم منهم، بل كان يغشى أحيانا منازل الأدباء والشعراء، وتوثقت صلته بالشيخ "حمزة فتح الله"، والبارودي، وعبدالله فكري...إلخ. ص٤

ولم يلبث طويلا في وظيفته ففصل منها، وضاقت عليه القاهرة بما رحبت؛ فهام على وجهه، وفي إحدى القرى بالدقهلية كان يُعلِّم عمدتها وأولاده، وضيق عليه العمدة في أجره، فهجاه هجاء مُقْذِعا، وترك القرية ليشتغل بتجارة (العصائب) في المنصورة، ولم ينجح في تجارته، فعاد إلى الإسكندرية عام ١٨٧٩م حيث تعرف في أحد مجالسها بالأديبَين الصحفيين: أديب إسحق، وسليم النقاش، وانضم إليهما في جمعية سرية للإصلاح والتقدم. ص٥

وفكر في إنشاء جمعية علنية على غرار جمعية إسحق أديب، وسليم النقاش، وكان مقصده الكتابة والعمل في كل ما يعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية.

وظهرت (الجمعية الخيرية الإسلامية)، وكان لها نشاط بارز، وواسع في التعليم، والتربية، ومقاومة الفساد، فجعلها أمير البلاد تحت رئاسة ولي عهده عباس الثاني.

اشتغل النديم بالتحرير السياسي فكان يكتب في جرائد عصره، وما زال كذلك حتى أنشأ جريدة (التنكيت والتبكيت)؛ ظاهرها هزْل، وباطنها جد، فأودعها ما لم يسبق إليه أحد من كتاب العرب، فأغلقتها الحكومة لأسباب سياسية، فاستبدلها بجريدة (الطائف)، وكانت سياسية محضة، بلغت من الشهرة مبلغا عظيما. وما لبث أمراء الجند في أثناء الثورة أن خصصوها لدعوتهم، ومع ذلك استمر يكتب فيها، وظلت كذلك حتى انطفأت جذوة الثورة، فهرب من القاهرة واختفى.

انضم النديم إلى (الحزب الوطني) ووجد فيه فرصته إلى الإصلاح والتقدم، ومن ثم سلك مسلك الثوار يشارك في اجتماعاتهم، ويخطب في المحافل، فجعلوا منه (خطيب الحزب الوطني). وهذا موضوع يطول شرح تفاصيله، وبيان دور من الثوار.

هاجت القاهرة على الخديوي توفيق وسياسته، وماجت حين ضرب الأسطول الإنجليزي الإسكندرية، ونشبت الحرب بينهم وبين عرابي وإخوانه، وبكل أسف انهزم عرابي في موقعة (التل الكبير) عام ١٨٨٢م، وفر عرابي إلى (كفر الدوار) ليختفي النديم عشر سنوات متجولا في أنحاء البلاد. وهذا أيضا موضوع يطول الحديث عنه، ونحيل القارئ إلى قصة هروبه والقبض عليه إلى ( ).

قبض على النديم في ١١/ ١٩٩١م في آخر ولاية توفيق الذي أمر بنفيه إلى يافا من ثغور فلسطين. وفي عام ١٨٩١م تولى الحكم الأمير عباس الثاني، وعفا عنه، وعاد إلى القاهرة، وباشر العمل بالصحافة فأنشأ مجلة (الأستاذ) فنالت من

الشهرة والانتشار ما لم تنله سواها في أعوام، وما لبثت الحكومة أن أغلقتها لأسباب سياسية، وغادر النديم إلى يافا، ومنها إلى استانبول، واشتُرِط عليه ألا يكتب في الجرائد شيئا يتعلق بسياسة مصر.

وفي الآستانة توثقت صلته بجمال الدين الأفغاني، ولكن المنية داهمته؛ فقضى بداء السل الرئوي في أكتوبر ١٨٩٦م، ودفن في (باشكطاش).

عبدالله النديم صحفيا

أدت الصحافة المصرية في عهد إسماعيل دورا خطيرا في الدعوة لتقويض سياسة الباب العالي في مصر، وبلورت شعار (مصر للمصريين)، كما أدت دورا خطيرا في المطالبة بالدستور، وبالحياة النيابية، وبإقرار مبدأ فصل السلطات، ومبدأ مسؤولية الوزارة أمام البرلمان، وكان النديم من أعلام الصحافة آنذاك، وفيما بعد في عهد توفيق، وعباس الثاني.

صحف النديم

- **التنكيت والتبكيت**

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة ٦/ ٧/ ١٨٨١م، وهي صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية تهذيبية، وصدر آخر أعدادها في ١٦/ ٩/ ١٨٨١م.

التزم فيها "باللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية"، وقد كان هم النديم في تحريرها نقد السياسة العامة للبلاد، ونقد العيوب الاجتماعية المتفشية فيها.

وبها مقالات في السياسة العامة بلغة فصيحة، ومقالات أخرى في نقد العيوب الاجتماعية المتفشية بأسلوب يجمع بين الفصيح والعامي.

- **الطائف**

حين نشبت الثورة العرابية، واتصل بها النديم طلب الثوار أن يجعل هذه الصحيفة في خدمتهم، وأعلم عرابي إدارة المطبوعات بأن (التنكيت والتبكيت) تغير اسمها إلى (الطائف).

ومنذئذ أصبحت جريدة رسمية لعرابي ورفاقه، بل أصبحت كذلك الجريدة الرسمية لمجلس النواب.

وفي (الطائف) كتب النديم مقالات سياسية ذات طابع ثوري واضح بلغة فصيحة فحسب.

وفضلا عن المقالات التي كتبها في نقد إسماعيل، ونقد توفيق كتب مقالات أشد ثورية عن حالة الفلاحين، وما يتعرضون له من بؤس وعَوَز. وقد استأثر الإصلاح النيابي بجانب عظيم من جهوده، وكان يؤكد دائما أن الإصلاح السياسي لا يقوم إلا على الإصلاح النيابي، وكان عرابي يُلقِّب النديم بـ (حامي حمى الديار المصرية).

وانتهى عهد هذه الصحيفة بهزيمة العرابيين في موقعة "التل الكبير" عام ١٣/٩/ ١٨٨٢م.

- **الأستاذ**

دُرة الصحافة الوطنية في القرن التاسع عشر. وَعَد النديم بعد عودته من منفاه ألا تتعرض جريدة (الأستاذ) للأمور السياسية الحاضرة: الداخلية والخارجية على سواء.

تأسست في ١٨٩٢/٨/٢٤م جريدةً علمية أدبية تهذيبية فكاهية. وصدر آخر أعدادها: العدد الثاني والأربعون ١٩٩٣/٦/١٣م.

وعلى الرغم من وعده بعدم التعرض للأمور السياسية؛ فقد دفعته وطنيته إلى أن يكتب في هذه الأمور بأسلوب هادئ رصين، وبلغة فصيحة واضحة المعالجة، ومن أهم هذه المقالات:

١- (بما تقدموا وتأخرنا والخلق واحد): عرض فيه ما عليه أروبا من تقدم، وما عليه الشرقيون من تأخر، وبين فيه أسباب تقدمهم وتأخرنا، في عرض تاريخي يشهد بثقافته الواسعة، وعمق نظرته للأمور.

٢- (طريق الوصول إلى الرأي العام): وهو مقال طريف قلما عالجه الكُتَّاب، وقلما اعتبره الحكام في سياسة أوطانهم لسيادة روح الاستبداد، وانعزالهم عن الشعوب، وفي تقديره أن الطريق إلى الرأي العام يكون في مصالح المدنية والواجبات الوطنية بتبادل أفكار عقلاء الأمة سؤالا وجوابا...ويشير إشارة هامة إلى محرري الجرائد والأمراء المنشغلين بالسياسة، وكذلك أهل العلم في مجامعهم العلمية، والأدبية، بالعمل في تثقيف الشعب وتهذيبه، ويؤكد على أن الطريق السديد لذلك هو الحكم الشورى من الجماعة الوطنية...

صحافة النديم:

صحف النديم الثلاثة لم تقتصر على ما كتبه من مقالات أو حوارات بل تعرضت لأشكال صحفية أخرى كانت معروفة في صحافة عصره، وكلها بالفصحى ما عدا الأزجال، ومن ذلك مواد صحفية تقع تحت عناوين مثل: فكاهات، ونوادر، وطرائف، وألغاز وحلولها، ومناسبات اجتماعية: شكر، تهنئة، عزاء ورثاء، تقاريظ لأعمال صحفية أو اجتماعية، أو أدبية، وإعلانات وأخبار محلية عن قدوم شخصية هامة أو مغادرتها للبلاد، وعن إقامة حفل أو مولد، وثمة باب توسع في نشره هو باب الأدبيات، ويضم قصائد فصيحة أو أزجال له أو لغيره من أدباء أو قراء عصره، وباب آخر يتصل بمكاتبات بينه وبين قرائه، ومن أهمها: ما كان حول قضية العامية، ومنها: ما كان في تعليق أو مقالة قصيرة،

ومن أهم ذلك ما تلقاه من "الست زينب" وسؤالها عن حقوق المرأة، ومشاركتها للرجل في الأعمال، ورد النديم عليها.

وقد أوْسَع صفحات "الأستاذ" بخاصة لمقالات وتعليقات وردت عليه من أدباء عصره وقرائه.

وبقي أن أقول اعترافا بفضل هذا الصحفي الكبير التنويه بما كتبه بعنوان (اللغة والإنشاء)، وهو مقال تحدث فيه عن تاريخ اللغة العربية منذ نشأتها في العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وما حدث لها من تطور، وفي الرد على الداعين إلى نبذ الفصحى واستبدالها بالعامية، ومن بينهم: (ولكوكس) صاحب المقال الشهير عن تخلف العرب ونسبته إلى لغتهم الفصحى.

النديم كاتبا مسرحيا

بعد عودة النديم إلى الإسكندرية أنشأ (الجمعية الخيرية الإسلامية)، وكان من أهم أغراضها: إنشاء مدرسة يُربَّى فيها النشأ تربية وطنية، ويتلقون العلم بطريقة حديثة مُحببة إليهم، وجعل من نشاطها الخطابة والتمثيل، ولم يكتفِ بهذا بل كان يؤلف الروايات التمثيلية في نقد العيوب الاجتماعية، ويقوم هو وتلاميذه بتمثيلها على المسارح العامة بمدينة الإسكندرية كرواية (الوطن)، ورواية (النعمان) اللتين مثَّلهما في (ثياترو زيزينيا) في حضرة "الخديوي، ولقى فيهما نجاحا كبيرا.

وليس لدينا من مسرحايته–بكل أسف إلا جزء من مسرحية (الوطن)، ويدور الحوار فيها بالعامية المصرية، وبها بعض الكلمات الأجنبية التي كان بعض شخصياتها يستخدمها.

النديم خطيبا ثوريا

كان النديم شعلة نشاط يظهر في كل مجتمع، ويقف في كل حفل، ويخطب في كل نادٍ، ويرتجل الكلام ارتجالا، ويتدفق فيه تدفقا تُسعفه فيه بديهة حاضرة لم نسمع بمثلها في تاريخ الأدب العربي، وكانت خطبه مثالا يَقتدي به تلامذةُ المدارس، وكان يصطحب معه نوابغ هؤلاء التلاميذ، وقد قُدر لبعضهم أن يكون

من قواد النهضة في مصر، مثل: مصطفى ماهر (باشا)، وفتحي أفندي زغلول (باشا).

النديم مصلحا اجتماعيا

كان للنديم فضل عظيم يُحمد عليه ويستحق عالي التقدير، وهو ما بذله من جهد وافر وعزيمة قوية، وإصرار متواصل في الإصلاح الاجتماعي، بالإضافة إلى دوره في الإصلاح السياسي.

وقد نالت مقالاته في هذا الشأن–وهي بالعامية غالبا، وموجهة إلى عامة الشعب–شهرة واسعة، وتأثيرا واضحا، وتعضيدا من كل قرائه. وقد استحقت هذه الشهرة–بفضل نزعته المتأصلة في وجدانه إلى الإصلاح، وقد كان من أشد المصلحين عطفا على العامة، فقد نشأ بينهم، وعاش كما يعيشون، وعانى ما يعانون منه، وعرف ما يلائمهم من أساليب القول والنصح، وكان يحدث العامة بصراحة تامة في أسلوب لاذع حينا، وفي أسلوب حميم حينا، وفي أسلوب فكه أحيانا.

ولم يكتفِ بوصف أوضاعهم بصدق، وعرض مشاكلهم بواقعية، بل كان يهدف أيضا إلى تنبيه أولي الأمر إلى وجوب اهتمامهم ونهوضهم بمعالجة أمراضهم.

ولا يكاد يخلو عدد من أعداد "الأستاذ" من حوار بالعامية أو بالفصحى في قضية أو مشكلة من قضايا المجتمع ومشكلاته.

وهذه بعض أمثلة لهذه الحوارات:

ونكتفي هنا بالإشارة فحسب إلى بعض هذه الحوارات التي تدور بين شخصيتين من العامة.

- حوار بين سعيد وبخيتة، وهما من خدم البيوت، يتحدثان عن أحوالهما.
- حوار بين حنيفة ولطيفة، وهما من ربات البيوت، ويتحدثان عن مشكلة فساد الأزواج بمعاقرة الخمر والمقامرة.

- حوار بين لطيفة (المسلمة)، ودميانة (المسيحية)، ورِفأة (اليهودية). يدور الحديث بينهم في المشكلة السابقة، ويرون أنها مشكلة كل البيوت.
- حوار بين شريفة وبهية، يدور الحوار حول زيارة الأولياء؛ للتقرب إلى الله، وما يصاحب هذه الزيارات والموالد من مفاسد.
- حوار بين أبي دعموم، والشيخ مرعي، وهما من أهل الريف، يدور الحوار حول اغتصاب أرض يملكها أبو دعموم، وعن اضطراره لرفع دعوى أمام القضاء وما أنفقه عليها؛ حتى اضطر إلى بيع ما يملكه، ولا فائدة.
- حوار بين يوسف القماش (مسيحي)، وسلامة الصياد وزوجته، يعرض يوسف بضاعته من المصنوعات المصرية، ولكن سلامة وزوجته يفضلان الشراء من اليهود والأجانب.
- حوار بين زاكية ونفيسة، يدور حول المدارس الأجنبية التي تعلم الإنجليزية والموسيقى والرقص، وما ينبني على ذلك من مخاطر.
- حوار بين كامل وحافظ، وهما من أهل المدن المتعلمين، يدور الحوار أيضا عن المدارس الأجنبية التي تعلم المصريين الدين المسيحي، ولا تعلمهم الدين الإسلامي، وما ينجم عن ذلك من التعصب، ويدعو إلى تقوية دعائم المحبة بين المصريين، والمحافظة على وحدتهم الوطنية.

مستويات الخطاب

عربية فصحى:

شكل لغوي مكتوب يُراعي القواعد التي استخلصها النحاة واللغويون من كلام العرب، وبعبارة أخرى: يشمل أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية، بالإضافة إلى قائمة مفردات.

والفصحى في لغة "النديم" هي: ما نسميه اليوم: (العربية الفصحى المعاصرة)، أو (فصحى العصر)، وهي نمط من الفصحى التقليدية مُعْرب جارٍ على قواعدها، بيد أنه قد أصابه شيء قليل من تغييرٍ حدث في نظم جملها جعلها أيسر قبولا وأيسر استعمالا؛ ومعجمها غني غِنًى ظاهرا بما فيه من مفردات الفصحى القديمة، وما به مفردات محدثة.

وقد كانت الصحافة منذ ظهورها إلى اليوم تقدم مثالا شائعا لهذه اللغة، ومعينا لمُحدَثاتها.

الفصحى للمثقفين:

لم يتوقف النديم عن كتابة مقال أو أكثر بالفصحى في صحفه الثلاثة، وكانت صحيفة (الطائف) مكتوبة بالفصحى فحسب، على خلاف صحيفتيه الأخريين اللتين قد تتضمنان مقالات بالعامية.

وهذا مثال من عناوين بعض مقالاته يكشف عن القضايا التي كان يعالجها في صحيفة (الأستاذ):

- التربية والتعليم. ص ٨٧٣.
- مستقبل مصر. ٥٧٩.
- حالنا أمس واليوم. ص ٦٤٣، ٧٢٩.
- طريق الوصول إلى الرأي العام. ص ٢٨٩.
- بما تقدموا وتأخرنا والخَلْق واحد. ص ٣٣٧.

- لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا. ص ٥٠٧.

ونكتفي هنا بالإشارة الموجزة إلى المقال الأخير من المختارات:

كتب النديم تحت هذا العنوان الأخير مقالا ضافيا بلغت صفحاته ستا وعشرين، عرض فيه وناقش مشكلات مصر وقضاياها السياسية مناقشة مستفيضة، ونشر المقال في ١٨٩٣/١/١١م.

وهذه بعض عناوين اقترحتُها لبيان بعضٍ من أهم أفكاره:

١- الأمم تتقدم بالجمع بين قوتي السياسة والدين.

٢- دور الصحف في أوربا في نشر الإساءة إلى المصريين.

٣- تمسك الشرقيين بعاداتهم وأخلاقهم سبب تخلفهم.

٤- الشرقيون متوحشون لتخلفهم في الصناعات.

٥- الأوربيون يُشيعون الفواحش بين المصريين، بفتح البِيَر، والخمارات، وإباحة الزنى والربا.

٦- مزاعم الأوربيين في حاجة الشرقيين إلى تدخلهم لإصلاح أحوالهم.

٧- تدخل إنجلترا في شؤون مصر.

٨- دور المثقفين في خدمة بلدهم.

٩- إقامة حياة دستورية وطنية.

١٠- الاستعانة بالمصريين في إدارة شؤون الدولة.

ونكتفي هنا أيضا بفقرة منه عسى أن تكشف عن مضمونه، واللغة التي كُتب بها، وضعتُها تحت عنوان: (المسلمون والأقباط أمة واحدة):

قضى المسلمون مع الأقباط ثلاثة عشر قرنا، وهم في اختلاط أهل بيت، ومعاملة عشيرة، واتحاد عائلة، ما جرى بينهم يومًا واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين، لقد عشنا مسلمين ومسيحيين كل هذه المدة نتبادل الوظائف، والزيارات، وامتلاك الطين والعقار، فلم نسمع في شق عصا اجتماعهم، وتفريق

كلمتهم؛ لنتخذ ذلك ذريعة إلى أمر مطويٍّ في باطن المستقبل، ولهذا لم تجد دولة من الدول العدوانية علة دينية تتدخل بها في شأن مصر باسم "راحة المسيحي، والمحافظة على المعابد المقدسة، وإعطاء الأقباط حريتهم في عوائدهم الدينية، بل كان ائتلاف المسلمين بهم حجابا بين مصر وتلك الدعوة التي تعودتها أوربا تغريرا وتضليلا. ولهذا نرى المسلمين متألمين من انشقاق إخوان الوطنية، وحل رابطتهم التي مضت عليها القرون الكثيرة، وهي أوثق رابطة عُقدت عليها القلوب لا الخناصر".

عربية عامية:

شكل لغوي تستخدمه العامة (العوام)، وهو في هذا البحث شكل مكتوب كتبه النديم نفسه، يحكي كلام هؤلاء. وهو شكل لا يُراعي قواعد الفصحى–بمختلف أنظمتها، وله قواعده الخاصة، ومعجم هذا المستوى يضم مفردات مشتركة مستعملة في الفصحى لم تتغير بنيتها، وقد يتغير مدلولها، ومفردات أخرى من الفصحى حدث لها تغير في بنيتها، وثمة مفردات قليلة تفرد في استعمالها العامة.

وكانت دعوة النديم إلى الكتابة بالعامية المفهومة مبكرة في ظهورها؛ إذ كتب في (التنكيت والتبكيت) فصولا قصيرة بها، وتوسع في ذلك في (الأستاذ).

الرسم الإملائي للعامية:

استخدم النديم حروف الفصحى في رسم العامية المصرية، كما ينطقها المصريون في عهده دون اعتبار لأصولها في الفصحى؛ فاستخدم الهمزة –مثلا– بديلا عن القاف، ورسم الذال دالا في أغلب المواقع، ورسم الثاء تاء في أغلب المواقع، وقد يرسم الظاء ضادا في بعض المكلمات، ومع ذلك لم يلتزم بذلك دائما في كل ما سبق.

ومن أمثلة هذا:

١- الحوار بين النديم والمعلم "حنفي"، ويدور حول اللغة العامية التي يستخدمها في دعوته للإصلاح الاجتماعي:

كتب إليه بعض القراء أن يكتب فيما يهدي الناس إلى الأخلاق اللطيفة والآداب الجميلة بأسلوب عربي فصيح، ويرتضي النديم هذا الطلب، ولكن المعلم "حنفي" يرد عليه: "إن جمهور الناس ما يِقدر تفهم الكلام العربي النحوي ؛ لأنه كلام صعب على الستات والناس أمثالنا"، ويعد النديم بأن يكلمهم: "بكلام يفهمه الطفل الصغير، والمرأة من غير تعب، ولا يحتاج لتفسير، ولا لشيخ يقول لكم عن معناه...أخاطبكم بكلام من جنس البلدي في سهولته، ولكن عربي صحيح".

٢- حوار بين حنيفة ولطيفة:

ح: ا صباح الخير ياستي لطيفة.

ل: ا صباح الخير والسعادة يَخْتي، انت يختي بآلك كام يوم ما حد شافك. هِيَّا بسلامتها نبوية بنتك ما هي بعافية ؟

ح: سألت عليك العافية يختي. ان شا الله ما تشوفي وِحش، بتبوس إيديك وتسلم عليك.

ل: تِسلمي يختي...أنا يختي قلبي تَمَلِّي بِرجف وخايفة تقع في واحد زي المِدَهْول أبوها يبهدلها ويِفُوتها طول الليل من الخمارة دي للمحششة دي، ويسيبها لا تلاقي لقمة تاكلها ولا هِدْمه تلبسها.

ح: اسكتي يختي متفكرنيش بالرجالة ودواهيهم أحسن المسَخَّم جوزى مِوَرِّيني الغُلب، ومِضَيَّأ منافسى، وحياتك يا ست أم محمد ما يجينى ألا نص الليل.

ل: مش بس هو يختي اللي عَلْحالدي، كل ولاد اليوم كده، واهُوَّدا اللي علم نسوانهم الفلتان، والمَرَا من دول لما تعرف ان جوزها موش جاي إلا نص الليل، ورايح يجيلها طلطميس ما تروح رُخره تِدّهول مطرح ما تدهول وتيجي...إلخ.

- زوج لطيفة موظف في الحكومة، يتقاضى عشرين جنيها. تقول عنه: "دا يِئْبض المهية يختي، وييجي ما ناخد منه أجرة البيت إلا بالضالمين، وافضل اتحايل عليه وأَأَع في عرضه لما آخد جنيهين من العشرين الي يئبضهم،...إلخ".

مؤتمر نسائي:

في آخر الحوار المطول ي حنيفة ولطيفة، تذكر لها ظهور جرنال اسمه (الأستاذ)، وأنها كانت "عند ستي نجية هانم"، وكانت تقرأ فيه، ووجدت أن صاحبه ((نازل على الجدعان رجالتنا التلفانين بكلام ينشف رِيئهم ويِرجعهم للصواب)).

واتفقتا على دعوة نجية هانم، وسنية هانم، ونفوسة هانم، وأم حنين ، وأم شمعون، وأم جبور، وغيرهم، ويكون الاجتماع في بيت "أم شفيق"؛ لمناقشة أحوال زوجات الرجالة التلفانين، "ونشوف طريئة في كون رجالتنا تِبَطَّل الخمرة والأُمار، ونخليهم يشوفوا حالهم ويلتفتوا لبيوتهم".

وبعد مناقشة طويلة اتفقوا على أن تكتب "الست نجية هانم" إلى النديم.

النديم يكتب عرض حال لمن يهمه الأمر:

وتكتب الست نجية هانم إلى النديم أن ينوب عنهم في عرض قضيتهم "عرض يُلَيّن الحجر، ويِبكِّي اللي عمره ما بكى"، وتنهي كتابها بقولها: "ربنا ياخد بيدك، ويجزيك عن الولايا كل خير".

ويبادر النديم فيكتب في العدد العاشر من السنة الأولى أكتوبر ١٨٩٢م مقالا بعنوان: (عرض حال نساء السكارى لأزواجهن) بلغة فصيحة.

يقول في مستهله: "نِساؤكم اللاتي أخذتموهن بكتاب الله تعالى، واستلمتموهن من آبائهن على أنهن أمانات...يتقدمن بين أيديكم بهيئة الخضوع والأدب سائلين مقام رجولتِكم أن تتفضلوا عليهن بما تنفقونه على الملاهي ومُذْهِبات العقل والشرف ليسددن رمق العيال، ويحفظن ما عليهن من واجبات الزوجية، ويلتمسن أن تصرفوا بعض أوقات فراغكم من الأعمال بين أولادكم؛ تلاعبونهم وتهذبونهم...إلخ".

وينهي عرضه على لسان هؤلاء السيدات: "نرجو الله أن يُلْهمكم الصواب في أمرنا، ويردكم عن طريق الغواية إلى سبيل الهداية، وأن يديم علينا ستره، ويحفظنا من العار والنار في هذه الدنيا ويوم القرار".ص٣٣

الإمضاء:حرائركم

عربية وسطى:

شكل لغوي وسيط، مزيج من بعض خصائص الفصحى، وخصائص العامية، وبما أنه من تأليف النديم نفسه؛ فإنه يخضع لاعتبارات قَدَّرها النديم.

ومن هذا القبيل ما كتبه النديم بهذه العربية الوسطى، وغيرها من محاورات اصطنعها، ويترك لشخصياتها أن تتكلم بلغتها، والنديم يقوم بعرض موضوع المحاورة، وقد يتدخل بشرح أو تفسير، وفي نهاية الحوار يعبر عن نتيجته التي يريد أن يصل إليها.

ومن هذه النوعية ما كتبه بعنوان (تخريفة: الجنون فنون)، و(تخريفة: خد من عبدالله، واتكل على الله)، ونكتفي هنا بالحوار المعنون.

عربي تفرنج:

يقول في مستهله: "ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه (زُعيط)، وتركه يلعب في التراب، وينام في الوحل؛ حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة، فسرّحه مع البهائم إلى الغيط يسوق الساقية، وكان يعطيه كل يوم أربع حَنْدويلات، (والحندويلات من خبز أهل الريف)، وأربعة أمخاخ بصل، وفي العيد يقدم له اليَخْني ليمتعه بأكل اللحم، والبصل...إلخ".

وأرسله أبوه إلى المدرسة فنجب، وقُدِّر له أن ترسله الحكومة إلى أوربا لتعلم فن بعينه، وبعد أربع سنين عاد إلى وطنه... ومن فرح أبيه حضر إلى الإسكندرية، فلما خرج من الفلوكة اقترب منه أبوه ليحتضنه، ويقبله... فدفعه في صدره. وجرت بينهما هذه العبارة:

زُغيط: سبحان الله! عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جدا.

معيط: أمال يابنى نسلم على بعض ازاي ؟

زعيط: قُول: بونريفي ، وحُط إيدك على إيدي مرة واحده وخلاص.

معيط: يالَهْوي ياابني ، أنا منيش ريفي!

زعيط: موش ريفي ياشيخ ، أنتم أبناء العرب زى البهايم.

وفي الكفر أعدت أمه طاجنا في الفرن مملوءا لحما ببصل، فلما رآه قال لها زعيط:

ليه كترتي من إل...!

معيكة: من إل...إيه يا زُعيط ؟

زعيط: البتاع اللي اسمه إيه..اللي اسمه (نونو) (لا) إل دي البتاع اللي بينزع...اللي يبقى لو راس في الأرض ، البتاع اللي يدمع العين. مافيه (أونيون).

معيكة: والله يابني ما فيه أونيون ولا... دا لحم ببصل.

زعيط: ييي شا. بصل بصل.

معيكة: ويا زعيط يا ابني نسيت البصل ؟ وانت كل أكلك كان منه ؟!

ويشكو معيط ابنه إلى أحد النبهاء (النديم)، فيقول له: ((ابنك لم يتهذب صغيرا ، ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدر شرف الأمة ، ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ، ولا رمزية الوطنية ، فهو وإن كان قد تعلم علوما إلا أنها لا تفيد وطنيته ، ولا يميل إلى إخوانه ، ولا يستحسن إلا من يعرف لغتهم ؛ فأصبح كالحَجَل لما أراد أن يقلد الغراب في مِشيتِه ، وعجز عن التقليد ، واستحال عليه عوده إلى طبيعته الأولى)).

فن الحوار عند النديم:

فيما سبق من حوارات نلاحظ أن النديم قد نجح نجاحا مُبهرا في اختيار موضوع الحوار، واختيار شخصيات المتحاورين، واختيار اللغة الملائمة للموضوع والشخصيات.

انظر مثلا مشكلة: خدم البيوت، وشكوى الزوجات من أزواجهن التلفانين، ومشكلة: زيارة المقابر ومقامات الأولياء والموالد...ترى سمات عامة بين المتحاورات، فهم أميون من وسط شعبي، ينتشر بينهم الجهل، والعادات السيئة. وقد كان تصويره لها واضحا في أسمائهم، وفي لغتهم مفردات وأساليب، وهم جميعا ذو أو ذوات أبعاد مختلفة اجتماعية، ودينية، منهم المسلم والقبطي واليهودي: حنيفة، ودميانة، ورِفأة، أم حنين، وأم شعنون...

ومنهم من يعيش في القاهرة مثل السابقين، ومنهم أهل الريف: أبو دعموم، مرعي، بهانة، وست البلد. ومنهم أهل الحرف والصناعات: حنفي، ويوسف القماش، ومن بينهم كذلك شخصيات على درجة من التعليم: حافظ، وكامل، وزاكية، ونفيسة.

ومن بينهم كذلك شخصيات نسائية يُشار إليها، وتشارك مشاركة عَرَضية، وهن ذوات تعليم، ومركز اجتماعي: الست نجية، وسنية هانم، ونفوسة هانم.

وساعد في نجاح النديم في بناء حواراته أنه سبق له أن عرف فن (التمثيل)، وألف فيه، بل ومثَّل أيضا. (وانظر: مسرد المفردات والأساليب الذي ألحقناه بهذا البحث).

كلمة حق:

ولابد لإحقاق الحق أن نقول: إن النديم فيما كتبه بالعامية لم يكن عاجزا أو مقصرا عن التعبير بالفصحى، أو صاحب دعوة للاعتداد بها لغة قومية، بل كان صاحب رسالة اجتماعية إصلاحية؛ يسعى إلى توصيلها إلى الشعب بلغته التي يفهمها، ويستجيب لها.

أمر آخر: إن كثيرا من القضايا التي كتب عنها بالفصحى كقضية التعليم، والوحدة الوطنية، وحقوق المرأة، وإنشاء صناعة وطنية–وجهها إلى الطبقة المتعلمة من أهل وطنه–عالجها أيضا فيما كتبه بالعامية، ووجهها إلى العامة من أهل وطنه.

مسرد لبعض العبارات بالعامية العادية أو الهابطة

(يراعى ترتيب الكلمات وفقا لحروفها المكتوبة)

أَشْيِة:	بقت أشيتهم معدن. [نجحوا في أعمالهم]
أَلِيصْطة:	لما ييجي جوزك من بَرَّا...تحضري الأكل ، وتخليك أليصطة. [في مظهر طيب على خير وجه]
بَرَاوة:	المنافقين إن شكر قالوله: براوة
بُرِّيه:	اوعى تخلى النسوان الوحشين الدايرين من دار لدار ، ويخلو جوزك يقول: بُرّيه من عيشتك.
بهدلة:	أنا خايفة تقع في واحد زي المِدَهْول أبوها يبهدلها. [يسيء عشرتها]
بزازى:	ربنا يستر يختي...والنبى أطلع على السطح في نص الليل ، وأكشف ابزازي ، واخبط عليهم ، وأدعيلو بالهداية.
برطوشه:	احنا نستاهل ضرب البراطيش. [البراطيش: أقدم وأسوء النعال]
جلّالة:	يروح عند مَرّة ، الجلالة أحسن منها. [الجلالة: المرأة التي تجمع روث البهائم، وتصنع منه جِلّة: وقودا]
جرجارة:	هِيّ ما هياش من النسوان الجرجارة. [الجرجارة: التي تتردد على البيوت، وتجر غيرها إلى السوء].
حل اللباس:	خليهم يحلوا لباسهم ويورونا شُغْلهم. [دعوة إلى التحدي].
حنجل ومنجل:	دخلوا علينا بالحنجل والمنجل. [بكل سبيل للسيطرة علينا، وتحقيق أغراضهم].
حِنت:	أولاد اليوم ولاد حِنت يوديك البحر ويجيبك عطشان. [الحِنت: جودة التصرف، والاحتيال لتحقيق الأغراض، وقد تعني أولاد الزنى].
حلّق وحوش:	اتلمت عليه ولاد حلق وحوش اللى يسرق البيضتين من أمه ، ويشرب بيهم خمرة.
حيّاك الله:	حواليه شوية عفاريت من أولاد حياك الله.
خبْص ولبْص:	حياتهم كلها خبص ولبص. [الخبص: الكذب، والافتراء على الناس بالباطل، واللبْص: إتباع].

رمْرمة:	تقومي ، ترمرمي في الأكل ، وتخلى ريحتك وحشة
طرطر:	واسم الله عليها لما تقعد قدام الراجل تِكَح من الدخان ، وتطرطر السجارة في وشه.
عيش وملح:	هوَّ العيش والملح مالوش حق ؟.
عِدّولى:	انت رُحْت وقلتِ عِدّولى. [غبت عنا طويلا]
فلاتي:	كان ولد بايظ وفلاتي. [الفلاتي: المتفلت الذي لا خلق له، وقد يكون الزاني].
لخبطه:	يمشي على العجين ما يلخبطه. [من مهارته]
مجعوص:	فين يختى صحاب جوزك ؟ ، هما مجعوصين في المندرة. [قاعدين]
مرعرع:	الهدوم تخلى صحة الراجل طيبة ، وتخلى الجسم مرعرع. [نشيط]
نَوَرِي:	يمشي في السكة ، وعينيه على الشبابيك زى النورى. [النوري: اللص].
ولية:	الراجل الطيب بيطاوع الولية ، ويِدّيها اللي هي عاوزاه. [الولية هنا: الزوجة]
شنتفة:	الست زينتها حلاوتها ، وشنتفتها الحلوة. [الشنتفة: الزينة الجميلة].
شبرقة:	هما يقعدوا يضحكوا ويشبرقوا بكام كلمة. [يتسامرون]
شرموطة:	راح القماش داب ، وتلاقيه زي حِتّه شرموطة. [الشرموطة: خرقة من قماش].
صايع:	من أولاد الهَجَمة الصايعين اللي مالهم صنعه إلا تلف أولاد الناس الطيبين. [الصايع: من لا صنعة له، والمحتال]

* *

مصادر البحث والمراجعة

١. جريدة الأستاذ، ج ١، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٩٩٤م، بدراسة تحليلية، للدكتور/ عبدالمنعم إبراهيم الجميعي.

٢. جريدة التنكيت والتبكيت.

٣. جريدة الرياض، رجعنا إلى مقال الدكتور/ حمزة عبداللطيف، وإلى بعض ما جاء بها.

٤. أمين، أحمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ط: ١٩٤٨م، النهضة المصرية.

٥. الحديدي، د. علي: عبدالله النديم خطيب الوطنية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة أعلام العرب، د.ت.

٦. حمزة، د. عبداللطيف: أدب المقالة الصحفية في مصر، الأجزاء من ١-٤، دار الفكر العربي، ص ١٩٥ وما بعدها.

٧. الدسوقي، عمر: في الأدب الحديث، ج ١، ج٢، دار الفكر العربي، الطبعة السابعة، ط: ١٩٦٦م.

٨. زكريا، د. نفوسة: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، ط: ١٩٨٠م.

٩. زيدان، جورجي: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ١، ج ٢، دار الهلال، الطبعة الثالثة، ط: ١٩٢٢م.

١٠. شفيق، أحمد: مذكراتي في نصف قرن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأجزاء من ١-٤، ١٩٩٥ وما بعدها.

١١. نديم، عبدالفتاح: سلافة النديم، ج ١، ج ٢، مطبعة هندية بمصر، ط: ١٩٠١م، ١٩١٤م.

* * *